

البين والمخبوء في دراسة أنظمة القمع في العالم العربي

روجر أوين معلق ومؤرخ متمرس أنجز أعمالاً مهمة تتعلق بالعالم العربي، أصبح بعضها مراجع أساسية في دراسات التاريخ الحديث وما بعد الاستعمار. كتابه الجديد 'The Rise and Fall of Arab Presidents For Life' (٢٤٨ صفحة، هارفرد) يتعرض لظاهرة الرؤساء العرب الذين استطاعوا أو خططوا أن يحكموا مدى حياتهم، مصحين بذلك أشبه بالملوك منهم بالرؤساء، أو جاعلين الملوك أشبه بهم. أنهى روجر أوين الكتاب في ٢٠١٠، أي قبل اندلاع الثورات العربية ولكن الكتاب كان لم ينشر بعد عندما بدأت تداعيات انتحار البوعزيزي بهز أساسات عروش رؤوس العرب. عندها أعاد روجر أوين كتابة أجزاء من الكتاب وأضاف له فصلاً جديداً يُعنى بانتهاء عهد رؤساء مدى الحياة. كون الكتاب كان قد كتب قبل أحداث ٢٠١١ لا يضعف طرح الكتاب، ذلك أن قضية أوين هي كيفية تمكن هؤلاء الرؤساء من تنصيب أنفسهم كرؤساء مدى الحياة، ثم التخطيط لتنصيب أبنائهم من بعدهم، الأمر الذي نجح فيه فقط الرئيس الراحل حافظ الأسد. الكتاب يطرح السؤال التالي: ما هي الظروف التي سمحت لهؤلاء الرؤساء بتنصيب أنفسهم رؤساء مدى الحياة، وما هي الأدوات التي استخدمها هؤلاء الرؤساء لفرض أنفسهم والوصول إلى القوة شبه المطلقة التي وصلوا إليها. السؤال التابع لهذه الأسئلة والأكثر إشكالية هو سبب تركيز هؤلاء الرؤساء في المنطقة العربية، وإن كان هذا يُعزى لخصوصية عربية ثقافية أو إسلامية.

قبل أن يصل أوين لهذا السؤال، يكون الكتاب أشبه بعرض لآليات الحكم التي استخدمها هؤلاء الرؤساء. يقسم أوين العالم العربي حتى عام ٢٠١٠ إلى أربعة أنواع من أنظمة الحكم، أولها دول الحكم المركزي مثل سوريا ومصر والجزائر وتونس. في هذه الدول نجد اعتماداً كبيراً على مؤسسات

تم إنشاؤها قبل الاستقلال - مثل حزب التجمع الدستوري الديمقراطي في تونس - واستخدام ماضيها الكفاحي لإعطاء شرعية وصبغة قتالية للنظام. يجمع هذه الدول تقسيم للأجهزة الأمنية بحيث لا تحصر القوة في أي منها، والتخلص من أي بوادر تسييس أو توجهات وطنية أو فكرية في الجيش أو أي من القوات المسلحة. تستخدم هذه الدول برامج التطوير والتعليم للحصول على الشرعية كاستمرارية لإرث المؤسسة النضالي قبل الاستقلال. يتساءل أوين عن سبب اهتمام هذه الأنظمة - السوري مثلاً - بإجراء هذه الانتخابات الشكلية والاهتمام الكبير بها، رغم ما تنطلي عليه من تكاليف وأعباء إدارية كبيرة على الدولة. يقر أوين أن الإجابة عن هذا السؤال تكون صعبة دون الوصول إلى أرسيفات الأنظمة وخرق سريتها المفرطة. هذه الصعوبة تشكل التحدي الأكبر لأوين، ويمكن أن تكون نقطة فرق واضحة بين تلقي القارئ العربي والقارئ الغربي للكتاب.

بعد أنظمة الحكم المركزي يتطرق أوين إلى ما يدعوه بـ دول-الرئيس-كمدير في اليمن وليبيا والسودان، حيث تتشابه هذه الأنظمة من ناحية الطبيعة المقسمة لمجتمعاتها. نجد في هذه المجتمعات الكثير من القبائل، ويكون النظام القبلي محتوى ومفهوماً ضمناً من النظام. يشدد أوين على أنه لا ينبغي أن نسمي هذه الأنظمة بالقبلية، بل هي أنظمة تقوم "بالتلاعب باستمرار بتشكيلة من الانتماءات دون-الوطنية" للحفاظ على استمراريتها. تختلف استراتيجيات الحكم في هذه الدول اعتماداً على اقتصادها وعلاقاتها الدولية، فبينما كانت استراتيجية القذافي هي رسم صورة لليبيا سعيدة هادئة لا يعكر صفوها إلا التدخل الخارجي، كان علي عبد الله صالح يرسم اليمن على أنه غابة وفوضى عارمة من العنف والتسلح لا يمكن لغيره أن يبقها تحت السيطرة.

دول الرئاسة المحدودة هي العراق-ما بعد صدام ولبنان، ونجد في هذه الدول إشراك قادة كل الطوائف في الحكم، بطريقة تمنع احتكار أي منهم للقوة. يوجد توتر طائفي عالي في هذه المجتمعات، وكثيراً ما يكون دور الرئيس بمثابة الوسيط بين هذه الفصائل والمحاولة في حل مشاكلهم بالديبلوماسية.

يركز أوين على أهمية إشكالين يطرحهما سام زبيدة في كتابه (الإسلام، الشعب والدولة). أولهما هو أن الانقسامات في المجتمعات كانت دوماً جزءاً من تركيب أي دولة. المهم، وما يستحق الدراسة المتأنية هو كيفية وتحت أية ظروف تم تسييس هذه الانقسامات. النقطة الأخرى التي يذكرها أوين هي استخدام زبيدة لمفهوم الطائفية السياسية لوصف الحالة التي "يصبح فيها الدين كهوية خاضعاً لخوف أوسع من أن مؤسسات ومبادئ أحد المجتمعات، وأحياناً وجودها نفسه في خطر".

النوع الأخير من الأنظمة هو دول الأمن الملكية في الأردن والبحرين وعمان. ويخص أوين بالذكر ملكي الأردن والمغرب في استخدامهم تقنيات استعاروها من جيرانهم الرؤساء لكي يتمكنوا من البقاء. هذه الأنظمة تمتلك نظرياً شرعية تفوق تلك التي يحظى بها رؤساء الدول المذكورة سابقاً إلا أن هذه الشرعية شكلية ولا تعفيهم من ضرورة اللجوء إلى تأسيس نظم أمنية معقدة وشبكات استخباراتية واسعة. يصبح إذا موضوع توريث الحكم الفرق الجدي الوحيد بين الممالك والجمهوريات.

في هذه الطروحات نجد أن أوين يقع أحياناً في بعض أفخاخ القارئ الغربي المتسرع لما يراه في العالم العربي، ففي تفسيره للأحداث في سوريا، نجد أنه يرجع إلى مقابلة بين أحد المقاتلين السوريين وإذاعة NPR الأمريكية حيث يستخدم المقاتل كلمة 'منافقين' في وصفه لجنود الجيش السوري الموالي للنظام. هنا يقوم أوين بتأصيل كلمة منافقين ويعود بها إلى معناها في سورة 'المنافقون' ليفسر أن دوافع المقاتلين دينية بحتة، بدلاً من قراءة الدين كأداة لمواجهة العنف المفرط ووسيلة بئسة للتخلي ببعض الشجاعة في مواجهة الموت المحتم. من الممكن أن يكون هذا فعلاً هو المقصود بما قاله المقاتل في تلك الحالة، ولكن أوين لا يوفر أي دلالات على هذا. اللغة العربية لغة وثنية كانت متطورة وراسخة قبل ظهور الإسلام. استخدام المقاتل لكلمة "منافقين" يمكن أن يتعلق بموقف الأسد من الجولان مثلاً، ولكن أوين يقع في غواية الدوافع الدينية المبهمة التي أصبحت التفسير المعتمد لدوافع الشخص العربي.

يرى أوين أن ما ساعد هؤلاء الرؤساء في التمسك بسلطتهم هو ما يسميه بالـ Demonstration effect. هذا الأثر يتمثل في العلاقة القريبة التي جمعت هؤلاء الرؤساء ومكنتهم من تبادل المعلومات وتقنيات التمسك بالسلطة، كما أنها جعلتهم يتعلمون من تجارب وأخطاء بعضهم ويراقبون أثر القرارات التي يتخذها جيرانهم وردود الفعل عليها بهدف استباق وتوقع ردود الأفعال عند تطبيق قرارات مشابهة. يعطي أوين مثلاً على هذا أزمة الخبز في تونس والجزائر في ٢٠٠٨ وكيف تم تبادل المعلومات والخطط بين النظامين الجزائري والتونسي، ويرجح أوين أن رؤساء العرب كانوا يراقبون باهتمام آليات نقل السلطة من حسني مبارك إلى ابنه بهدف التعلم منها.

أوين يعطي بعداً شخصياً لهذا الأثر وكيف أنه وطد العلاقات الشخصية بين الرؤساء، ذلك أن هذه مجموعة من الرجال الذين "هم فقط يعرفون ما هي الضغوطات وكيف يكون الشخص حاكماً في بلاد كهذه" ص ١٦٣. هذا 'النادي الحصري' يوطد العلاقات بين الرؤساء ويجعل علاقتهم سرية وعميقة. من هنا ينتقل أوين إلى السؤال التالي والذي لا يقل أهمية، ألا وهو: هل العالم العربي منعزل تماماً عن باقي العالم، هل هو خارج تأثير قوى رأسمالية السوق والتعددية السياسية

(بحسب تعريف فيبير لها على أنها في ومن صميم الحداثة)؟ يجاوب أوين على هذا السؤال بالنفي، مفسراً أن تفشي ظاهرة الرؤساء مدى الحياة في العالم العربي وفي نفس الحقبة لا يمكن أن يفسر ببساطة وتحامل على أنه نتيجة لخصوصيات ثقافية ودينية، بل أنه نتيجة 'القوى استثنائية' متشابهة مرت فيها دول المنطقة. هذه العوامل تشمل آبار النفط وإسرائيل.

هذا أقرب ما يصل إليه أوين في الإشارة إلى دور إسرائيل في المنطقة. أوين لا يتطرق كثيراً إلى دور إسرائيل في استمرارية حكم هؤلاء الرؤساء ولا العلاقة المباشرة التي ربطت إسرائيل بعدد من هؤلاء الحكام، ولا حتى عند تطرقه إلى نظام مبارك الذي كانت إسرائيل كرتاً أساسياً في سياسته الخارجية. بل يشعرنا الكتاب أحياناً أن دور إسرائيل في سياسات العالم العربي خافت وبعيد ويكاد لا يستحق الذكر. أوين أيضاً يكرر أن هناك عوامل خارجية في استمرارية هؤلاء الزعماء ولكنه لا يتعمق في دور أمريكا والغرب في التعاون الاستخباراتي وتسليح أمريكا وتدريبها لقوات هذه الدول. يستمر أوين في تذكيرنا في مواقع مختلفة في الكتاب أن بحثه مُقيد بمحدودية الوصول إلى ملفات الأنظمة وسجلاتها، وأن في غياب هذا الوصول، تبقى هناك مساحات كبيرة وهامة لا يمكن ملؤها سوى بالتخمين والافتراض المدعوم بأمثلة مسبقة. لهذا السبب، نجد أن الكتاب لا يقدم الكثير للقارئ العربي الذي يعرف هذه الآليات فطرياً ويفهمها، بل يأخذها كمسلمات.

د. معن أبو طالب